الحاجبُ العظيم
كبير الوزراء

كان عبد الرحمن الناصر آخر عظماء الأمراء من بنى أمية بالأندلس، وكان ابنه الحكم دودة كتب، ودود الكتب من الناس – وإن أفادوا جدًّا فيما اتجهوا إليه – قلما يكونون حكامًا عظماء، فإن منصب الملك لا يهيئ لصاحبه أن يبلغ الذروة فى العلم، فقد يعرف الملك كل شىء تحت الشمس، وقد يصرف فراغه كما كان يفعل ملوك قرطبة فى الشعر والموسيقى، غير أنه يجب ألا يدفن نفسه فى خزائن كتبه، أو أن يعنى بالمخطوطات أكثر من عنايته بالحروب، أو أن يؤثر تجليد الكتب ورتقها على رتق مواطن الألم من رعيته، وكان الحكم فى شدة انصرافه إلى الكتب كذلك.

إنه لم يكن ضعيف القلب أو غافلا عن تبعاته الجسام، ولكن انهماكه فى الدرس سلبه الاهتمام بالغزو والتشوق إلى الظفر فى الحرب، فقد أغرق فى إلقاء العنان لطبيعته الميالة إلى الاطلاع حتى تكونت له أذواق وميول فنية، هى أثر الدراسات العلمية ونتيجتها.

ولم يضرطبعه الهادئ ومزاجه العلمى مملكته كثيرًا، فقد كان ابن الخليفة العظيم حقًّا حينما كان يقود جيوشه لمحاربة نصارى ليون إذا نقضوا عهودهم، وكان الرعب الذى غرسه أبوه فى القلوب

عظيما، والشعور بقوة الخلافة شاملا، حتى إن أمراء نصارى الشمال ألقوا بزمام أمورهم إلى الحكم، وقدم أحدهم إلى قرطبة يتوسل إليه ويرجوه فى إعادته إلى عرشه.

وتم الصلح بين النصارى والمسلمين فاتسع الوقت للحكم، فعاد إلى جمع الكتب لخزائنه، وكان يرسل رسلا إلى كل بقاع الشرق ليبتاعوا له المخطوطات النادرة ويعودوا بها إلى قرطبة، وكان رسله ينقبون عن الكتب العزيزة المنال عند وراقى القاهرة، ودمشق، وبغداد، وإذا لم يستطع الحصول على كتاب بأى ثمن أمر بنسخه، وكان يسمع أحيانًا بكتاب لا يزال فى دماغ مؤلفه، فيرسل إليه بهدية ثمينة ويسأله أن يبعث بالنسخة الأولى إلى قرطبة، وقد جمع بهذه الوسائل ما لا يقل عن أربعمائة ألف كتاب، وذلك فى وقت لم تعرف فيه الطباعة، وحين كان الخطاطون يلاقون عنتًا فى كتابة الكتب بالخط الواضح الجميل.

ولم يكتف الحكم بالحصول على هذه الكتب، ولكنه خالف جميع جماعى الكتب بقراءتها جميعًا والتعليق عليها، وكان واسع العلم حتى إن تعليقاته كانت تعد عند العلماء من أجل ما يكتب وأنفسه، وكان تدمير البربر لقسم عظيم من هذه الخزائن كارثة على الأدب العربى.

وكان مما يطمئن له الظن أن يستريحَ خلف الخليفة العظيم وينعم بما جناه له أبوه من ثمار النصرويمتع نفسه بالدراسة الهادئة،

بينمـا كان أعداؤه فـى الخارج يرقبون غـزوه لبلادهم من حين إلى حـين. لأن العمل الذى أتمه عبد الرحمن الناصر لم يسـتطع خليفة واحـد أن ينقضـه، ولم ينتقض إلا بعد أن تداولـه خليفتان بعده، حينذاك هوى ذلك الملك الأثيل إلى الأرض مرة أخرى.

حكم الحكم المسـتنصر بالله أربع عشرة سـنة[1] وحين مات كان ابنه هشـام المؤيد فى الثانية عشـرة[2] حينما جلس على العرش، ولا يستطيع حادس أن يقدر ما كان يكون عليه هذا الخليفة الصغير لـو لقى ممن حوله حبًّا وإخلاصًـا، والتاريخ يذكر له بعض المخايل التى كانت تبشـر بالذكاء وحسـن الرأي، وبأنه باستعداده جدير بأن يترسـم خطوات جده[3]، ولكن حياة (الحكم) العلمية وتهاونه سلبت ابنه ووليه أية فرصة لقوة السلطان، فإن الحكم حينما كان فى شغل بجمع الكتب وتجليدها، كان عظماء القواد بمملكته يتدرجون فى النفوذ ورفعة الشأن وغير ذلك من الأمور التى لو حدثت فى أيام عبد الرحمن الناصرلوقف تيارها، وكان من آثار أعمال الحكم أيضًا أن أخذت زوجاته يفرضن نفوذهن على رجال الحكومة.

---

(١) تزيد مدة حكم المستنصر عن ذلك، فقد تولى الحكم سنة ٣٥٠ هـ ومات سنة ٣٦٦ هـ

(٢) فى نفح الطيب: أنه كان فى التاسعة من عمره.

(٣) كان أبو على القالى مؤدب هشام المؤيد، وقد وصفه بأنه كان فى صباه فى غاية الحذق والذكاء.

إن عبد الرحمن بنى مدينة لزوجته الزهراء، ولكنه كان يدهش جدًّا لو أنها جرؤت على أن تقترح عليه اسم شخص يوليه رياسة الشرطة، وحينما مات الحكم كان نفوذ نساء القصر عظيمًا، وكانت (صبح) أم الخليفة هشام أعظم من بالمملكة سلطانًا، وكان من صنائعها شاب قدر له بعد حين أن يكون أبعد منها نفوذًا وشأنًا، ذلك هو ابن أبى عامر الذى سندعوه من الآن بالمنصور، وهو اللقب الذى اتخذه لنفسه بعد أن أحرز انتصارات كثيرة على المسيحيين.

بدأ المنصور حياته طالبًا مغمورًا بجامعة قرطبة، وكان أبوه بها فقيهًا، ويرجع أصله إلى أسرة طيبة المنبت، وإن لم تكن ذات نفوذ، وقد عزفت نفس الشاب عن أن يحصر مطامحه فى الوصول إلى المنزلة التى رضيها أبوه لنفسه، وكان له وهو طالب آمال وأحلام وطموح، حتى إنه همس فى أذن بعض إخوانه من الطلبة بأنه سيكون فى يوم حاكم الأندلس، ثم جاوز الحد فى أحلامه، فسأل بعض الطلبة عما يختارون من المناصب لو ألقيت إليه أزمة الحكم ووعدهم بتحقيقها، وقد صدق وعوده عندما تحققت آماله[1].

(١) فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى: أن ابن أبى عامر كان جالسًا مع ثلاثة من أصحابه من طلبة العلم فقال لهم: ليتخير كل واحد منكم خطة أوليه إياها إذا أفضى إلى الأمر، فاختار أحدهم ولاية رية، والثانى حسبة السوق، وطلب الثالث ساخرًا أن يطاف به قرطبة على حمار ووجهه إلى الذنب، فلما أفضى الأمر إلى المنصور بلغ كل واحد منهم أمنيته.

ونشـأة المنصور مثال رائع لما يمكن أن يعمله الذكاء والشـجاعة والأثرة فى مملكة إسـلامية حيث كانـت الطريق إلى المعالى ممهدة للعبقريين كيفما كانت بدايتهم موئسة مثبطة. فقد كان المنصور فى أول أمره يعيش من كتابة الرسـائل لخـدم القصر، وما زال يتدرج بلباقـة حتى اتصل بكبير الحجـاب، الذى كانت له فى هذا القصر سلطة رئيس الوزراء، فعين فى مناصب قليلة الشأن، اكتسب فيها بسحر أخلاقه ومهارته فى الملق محبة نساء القصر، وبخاصة السيدة «صبح» التى هامت به حبًّا، ثم ما زال يرقى منزلة بإظهار الخضوع للأميرات وتقديم الهدايا النفيسـة إليهن، وكان يشـتريها أحيانًا من مـال الدولة حتى وصل إلى المناصب الرفيعـة، ولما بلغ الحادية والثلاثين كان يشـغل عدة مناصب، من بينها الإشراف على أملاك ولى العهد، وقضاء مدينة أو مدينتين، والنظر فى الزكاة والمواريث، وسـحر المنصور كل من لقيه برفيع أدبه وتواضعه، وكريم عطائه، ورقة إحساسه، ومساعدته للبائسين، وبذلك تمكن من اجتذاب عدد عظيم من الناس بينهم كثير من كبار الدولة.

وحينما عظم نفوذ السـيدة «صبح» بموت الحكم، وأصبحت أم الخليفة الصغير، وجد المنصور الفرصة التى كان يترقبها لتوسيع مدى سـلطانه، فعمل الاثنان معًا، واستطاعا إجلاس الطفل هشام

علـى العرش بقتل من كان ينازعه فيـه[1]، ثم تمكن المنصور من القضـاء علـى مؤامرة رجـال القصرالصقالبة الذيـن كانوا يأبون خلافة هشام.

وكان المصحفـى[2] الحاجـب فى هذه الفـترة رئيس الحكومة، فأعان المنصـور على الصعـود والترقى فى مناصـب الحكم، وعمل المنصور فى جد وإخلاص على إنفاذ سياسـته، وزاد فى محبة الأمة لهما ما تجردا له من كسـر شـوكة الصقالبة وتشتيت كثير منهم. لأنهـا كانت تبغض الجنود الغرباء. ولكـن الوفاق بين الرجلين لم يكـن طويل الأمد، فإن المنصور كان ينتظـر أن يرى طريقه واضحة للتخلص من الحاجب ويتحين الفرص للقضاء عليه من غير تردد أو خشية، لأنه كان يريد أن يصل إلى القمة، وأن تذيع شهرته وترتفع مكانته بين الناس.

وقـد لاحت لـه لائحة فاقتنصها فى شـجاعة وحـزم. ذلك أن نصارى الشمال عادوا إلى الشغب والمغالاة بقوتهم، ولم يكن المصحفى جنديًّـا، فتحير فى اختيار من يصد اعتداءهم، والمنصور القاضى لم يكـن أمهر منه فى إدارة الحرب ولكنه نبع من أسـرة قوية النبعة

---

(١) لما مات الحكم عزم جؤذر وفائق رئيسـا صقالبة القصر علىصرف البيعة إلى المغيرة أخيه، وأخبرا المصحفى بذلك فوافقهما فى الظاهر، ثم رجع جنده وأرسل ابن أبى عامر لقتل المغيرة فخنقه، وأخذت البيعة لهشام.

(٢) هو جعفر بن عثمان المصحفى.

إذ كان أحد أسلافه من العرب الذين صحبوا طارقًا فى غزو إسبانيا، لذلك لم يتردد لحظة ولم يخالجه شك فى كفايته حينما طلب أن يقود الجيش بنفسه، وكانت غارته على ليون موفقة، وكان إغداقه على الجنود عظيمًا، حتى إنه حينما عاد إلى قرطبة لم يكن القائد المظفر فحسب، بل كان موضع محبة الجيش وإجلاله.

ثم جردت حملة أخرى على نصارى الشمال، وكانت القيادة فى الحقيقة لغالب قائد الجنود الغرباء، وكان شجاعًا باسلا اجتذبه المنصور إليه معتزًا بصداقته، فأعلن غالب فى صراحة وجرأة أنهم ما فازوا فى المعارك إلا بعبقرية المنصور وذكائه. وبالغ فى وصف مواهبه وأغرق[1] حتى اعتقد الناس جميعًا أن تحت رداء الفقيه القديم نبوغًا عسكريًا، وكان الأمراء كذلك من غير شك.

وحينما أحس المنصور بالقوة بعد هذه الانتصارات المتوالية وبعد معاضدة غالب له واحتطابه فى حبله – أقدم على عزل ابن المصحفى، وكان رئيسًا لشرطة قرطبة، وأحل نفسه مكانه فأحسن القيام على الشرطة حتى إن المدينة لم تر فى عهودها عهدًا استتب فيه النظام، وخضع الناس فيه لأمر الحاكم كما رأت فى عهده، لأنه كان شديد

(١) فى الحلل السندسية للأمير شكيب أرسلان: أن غالب بن عبد الرحمن كان من أشهر قواد بنى أمية، فهو الذى رم حصون مدينة سالم سنة ٣٣٥ هـ وهو الذى زحف على قشتالة وأوقع بأهلها سنة ٣٤٢، وفى إحدى غزواته ببر العدوة استصحبه القاضى محمد بن أبى عامر وانعقدت بينهما مودة أكيدة.

العنـف فى الحق، حتـى إنه ضرب ابنه حتى مـات حينما تعدى حدود الشرع، وما أشبهه بجيونيس برونس[1] الذى كان لا يتجاوز عـن صغيرة فى تنفيذ القانون، وقد أعلت هذه السياسـة من شـأنه وزادت فـى محامده، لأنه بعد أن اكتسـب قبل ذلك محبة الجيش والأمة فاز برضا المتشددين فى أحكام الشريعة.

ونضجـت الثمـرة وآن له أن يضـرب ضربة سياسـية جديدة، فأخـذ فى مهارة يلعـب بغالب والمصحفى ويوقع مـا بينهما حتى اتسـعت شقة الخلف بين القائد المحنك والمصحفى رئيس الوزراء، وكانـت الضربة القاصمـة أن أغرى القائد على العـدول عن تزويج ابنتـه بالمصحفـى واتخذها زوجة له. وفى سـنة ٩٧٨ م / ٣٦٨ هـ بعد وفاة الحكم بسـنين رمى المنصور بآخر سهم فى كنانته، فاتهم المصحفى بالخيانة والسرقة وأثبت عليه ذلك بأدلة كثيرة وألقاه فى السـجن حيث بقى به خمس سنوات فى أسـوأ عيش وأذل مكانة، ثم مات أشـنع ميتة مسجى برداء ممزق للسجان، ويقال إن المنصور دس لـه السـم، وهكذا كانت نهاية كل من جـرؤ على أن يقف فى طريق مطامح المنصـور؛ فقد آل تعس الطالع بالمصحفى الحاجب إلى الفقر والعار بمكايد هذا الشـاب المحدث الذى لم يقف خمول أصله فى وجه عبقريته بعد أن وصل الحاجب إلى قمة المجد والسـلطان،

---

(١) رومانى انتخب حاكما للدولة سنة ٥٠٩ ق.م. وحين علم أن ولديه اشتركا فى مؤامرة لقلب نظام الحكم، حكم عليهما بالإعدام.

وجثت الآلاف من الراجين عند قدميه، وحاول ملك ليون المعزول تقبيل يديه.

وفى اليوم الذى قبض فيه على المصحفى جلس المنصور فى مكانه، فوصل إلى ذروة القوة وأصبح فى الحقيقة حاكمًا للمملكة الإسلامية بالأندلس، وكانت تتألف حكومة الأندلس من الخليفة ووزرائه، ولكن المنصور قصر الخليفة بالقصر، وطوى الوزراء بآرائهم ومشورتهم فى شخصيته العاتية، وكان يحكم المملكة كلها من قصره فى أحد أرباض قرطبة[1]، وأصدر الكتب والأوامر باسمه، ودعى له على المنابر، وضربت باسمه السكة، ولبس الملابس المنسوجة بالذهب، وقد نقش اسمه عليها شأن الخلفاء، وكيفما استوى له الأمر فإنه لم يكن بنجوة من كيد أعدائه، فإن المطامح لها خطرها، ولابد للمضطهدين الذين ديس عليهم بالأقدام أن يثوروا يومًا للأخذ بثأرهم، وهكذا كانت حال المنصور، فإن أحد الصقالبة الذين طردهم من القصر حينما رفضوا تولية الخليفة الصغير حاول اغتياله فلم يفلح، فقُبض عليه مع كثير من كبار الدولة المتآمرين معه، وحبسوا ثم حكم عليهم بالموت فصلبوا[2].

---

(١) بنى مدينة الزاهرة بطرف قرطبة على نهرها الأعظم سنة ٣٦٨ هـ وانتقل إليها سنة ٣٧٠ هـ.

(٢) كان عدد الصقالبة الذين نكبهم فى هذه الحادثة ثمانمائة أو يزيدون.

وأصبح المنصور الحاكم الأعلى بقرطبة، لأن الخليفة الشاب لم يبد أى اعتراض على الوصاية التى فرضت عليه، وكانت أمه «صبح» لا تزال صديقة حميمة للمنصور، ولم يكن فى المملكة من يزعم أنه يقارع المنصور أو يدانيه فى القوة إلا غالب أبو زوجته ... نعم إن الجيش أعجب بالمنصور وعجِب من جرأته على قيادة الجيوش دون أن يكون له سابقة فى الجندية، ولكنه عشق غالبًا وفنى فى محبته؛ لأنه كان شجاعًا حقًّا وجنديًّا بفطرته، وله من المهارة والتدابير فى الحرب ما لا يغلب؛ لذلك كان غالب منافسًا مخيفًا للمنصور، وكان يجب أن يزل من طريقه، فاتخذ كبير الوزراء العُدة لذلك بطريقته الناعمة وعزيمته الهادئة.

وكلما حاول المنصور عملا سار فيه بثبات لا يتزعزع، وإرادة من الحديد، ومن الأدلة الغريبة على أخلاقه: أنه كان مرة جالسًا فى مجلس الوزراء وكان القوم يتحدثون فى بعض الشئون العامة، إذ اشتم من بالمجلس رائحة لحم يُشوى، وظهر لهم بعد ذلك أن الرئيس كان أحضر كواء لكى ساقه بينما كان يناقش زملاءه فى هدوء وسكينة.

ومثل هذا الرجل لن يصعب عليه القضاء على أية عقبة ولو كانت القائد غالبًا، فقد دبر مكايده بعناية فنجحت جميعًا، وإذا رأى فى وسائله من الشدة ما لا تستسيغه الأمة عمد إلى تدبير آخر فيه رضاؤها واستعادة محبتها، فحينما أطفأ المؤامرة التى قام بها عدد

من كبار الدولة لاغتياله على النحو الذى سقناه آنفًا، وأحس أن له أعداء بين الفقهاء ورجال الدين، أسرع إلى مهادنتهم، فدعا إلى عقد اجتماع من زعماء الفقهاء، وطلب إليهم أن يكتبوا رقا بأسماء كتب الفلسفة التى يرون فيها خطرًا على الدين وخروجًا عليه. وشهرة مسلمى الأندلس بشدة التحرج فى الدين معروفة، فطالما لقى الفلاسفة منهم عنتًا. لذلك عجل الفقهاء وقدموا إليه قائمة بالكتب المقضىعليها بالإعدام، فأسرع المنصور إلى إحراقها علنًا فى الميادين. والمنصور كان من غير شك واسع الأفق، فسيح الصدر للفلسفة، ولكنه فاز بهذه الوسيلة السهلة بأن يدعى: حامى الإسلام، وبألا يأتمر به الفقهاء مرة أخرى.

إن رجلا مثله واسع الحيلة لن يعجز عن التخلص من غالب. فعمد أولا إلى إحداث بعض الإصلاح فى نظام الجيش، فحد من سلطة القواد واختلس هذه السلطة لنفسه، ووصل إلى هذا باجتلاب جنود كثيرة من إفريقية ونصارى الشمال الذين ما كانوا يأنفون من بيع أنفسهم وسيوفهم لأى قائد مسلم، فأحبوا المنصور وأخلصوا له حينما رأوا سخاءه، وتوالت لديهم الأدلة على نبوغه الحربى، وقد كان دائمًا قاسيًا: أمر مرة أن يقطع رأس جندى بالسيف الذى كان يحمله، لأنه لمح وميضه وقت أن كان يجب أن يكون مغمدًا، ولكنه كان فى غير أمور النظام والتدريب أبًا لجنوده، ما داموا يحسنون القتال، ويفعلون ما يؤمرون.

وكان تأثيره فى جنده لا يحد: كان مرة فى خيمته فرأى جنوده يفرون فى ذعر والنصارى فى أعقابهم، فرمى بنفسه من كرسيه وقذف بخوذته بعيدًا وجلس فوق التراب، ففهم الجند ما أبداه قائدهم من أمارات اليأس، فعادوا أدراجهم وهجموا على النصارى فاستأصلوهم وتتبعوا الفارين إلى شوارع ليون.

ثم إن الجند لم يجدوا من يسوقهم إلى مغانم كثيرة كالمنصور الذى قادهم إلى النصر فى أكثر من خمسين غزوة[1] شنها على أمراء الشمال، لذلك ازداد تعلق الجيش به، وهوى نجم غالب وأنصاره من المقيمين بالحدود.

ثم مات غالب فى إحدى المواقع، وظهر قائد آخر هو جعفر صاحب المسيلة، الذى أزعج المنصور بشهرته العظيمة بين جنوده، فدعاه إلى بهو الرياسة وسقاه الخمر حتى غلبه السكر، وحينما عاد إلى داره قتل فى الطريق، ولهذه الفعلة الشنيعة التى تدل على غدر المنصور وتلطخ يديه بالدماء أخوات سلبته صفة البطولة بعد أن كان يستحقها بأعماله اللامعة، وجعلت ميل القلوب إليه مستحيلا.

على أن صلابته وإقدامه وصلا بالأندلس إلى قمة من العز والصولة تبعد عن أى خيال، حتى عن خيال الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر، فإن هذا الرجل الذى لا ينال منه التعب ولا يمسه اللغوب

---

(١) فى نفح الطيب: أنه غزا ستا وخمسين غزوة.

شـن على إفريقية حربًا شـعواء، فوسـع رقعة الدولة على شواطئ البربر، وغزا نصارى ليون وقشتالة كل عام مرتين، مرة فى الربيع وأخـرى فى الخريف[1]، بينما كان يضغط فى قرطبة بيد من حديد على العشـائر المتنازعة ويسـتل شـوكتها، وبينما كان يتقرب إلى نفوس الشـعب بزيادة المسـجد الجامع زيادة فخمة رائعة، حينما شـعر بأن الأمة أخذت تغضب للعزلة التـى ضربها على خليفتهم الشاب، وتنصب إلى إغراء السيدة «صبح» ورجال القصر الذين سئموا المنصور وحسدوه.

وكان يشـرف بعين لا يفر منها شـىء على كل قسـم من أقسام إدارة الدولة، ويهب كثيرًا من وقته لإنماء الأدب وإنهاض الشعر، فقـد كان أديبًا بطبعـه، وكان يأخذ كتبه أينما ذهب بسـيفه، ولم تكن كتبه إلا الشـعراء الذين كانوا يصاحبونه فى غزواته، ولم ينل قائـد ما ناله المنصور من الانتصار فى كل موقعة؛ فقد قذف نصارى الشمال بالحديد والنار مؤيدًا بجنوده الغرباء الأشداء، وبكثير من الجنود المسـيحيين الذيـن جذبتهم إليه كثرة مـا يصيبون فى ظل قيادته من مغانم.

---

(١) فى نفح الطيب: واحدة فى الشتاء وأخرى فى الصيف.

واستولى على ليون، وأتى على بنيان أسوارها الضخمة وقلاعها من القواعد، وقهر برشلونة. والأدهى والأمر أنه خاطر بنفسه وبجيشه فى شعاب غاليسية وجعل كنيسة شنت ياقوب ركامًا، تلك الكنيسة الرائعة التى كانت ملتقى الحجاج، والتى كان لها من المنزلة بأوربا ما يقرب من منزلة الكعبة عند المسلمين.

ولم يمس بسوء قبر القديس يعقوب الذى ينسب المسيحيون إلى ما فيه من آثار القديسين كثيرًا من الخوارق، ويقال إن الفاتح حينما دخل المدينة بعد أن هجرها أهلها لم يجد بها إلا راهبًا جاثيًا أمام القبر المقدس، فسأله المنصور: ماذا تعمل هنا؟ فأجاب الراهب الهرم: إنى أصلى[1] فامتنع المنصور عن قتله، ووضع حراسًا لحمايته وحماية القبر من غضب الجنود الذين انطلقوا يهدمون كل شىء فى المدينة.

وكان المنصور جديرًا بلقبه الذى ناله بحق بعد إحدى هذه المواقع، وبتوالى الغارات على الشمال.

بقى أمراء المسيحية مغلولى الأيدى، وخضعت ليون والممالك المتاخمة لها، وأدت الإتاوات إلى قرطبة، فقد تكررت هزائم قشتالة وبرشلونة ونافار، واستولى المنصور على ليون، وبنبلونة،

(١) فى نفح الطيب أنه قال: إنى أونس يعقوب.

وبرشلونة، وشنت ياقوب، وحمل مرة ملك نافار على أن يجثو أمامه ذليلا على ركبتيه، لأن الوزير - وهو لا يتجاوز عن شيء - علم أن امرأة مسلمة مأسورة بمملكته، فأطلقت فى الحال مع كثير من ضروب الذلة والاعتذار.

وحدث مرة: أن المنصور كان يحارب فى الشمال، فسد جيش النصارى عليه وعلى جيشه الطريق إلى قرطبة، واحتلوا موقعًا حصينًا لا ينال، فلم يفت ذلك فى عضده، وأمر جنوده أن يعيثوا بأرض الأعداء حولهم، وأن يجمعوا ما يستطيعون لبناء الخيام واستقرار الإقامة، ولم يجرؤ النصارى على منازلتهم، لأنهم وثقوا من أنهم سييأسون ويسلمون، ولكنهم حينما رأوهم يقيمون المعسكرات ويحرثون الأرض ويزرعونها، وحينما سألوهم فى عجب واستنكار عما يعملون، كان الجواب الهادئ: «إننا رأينا أن الوقت لا يتسع للعودة إلى قرطبة لأن موعد الغزوة الثانية أصبح قريبًا. لهذا عزمنا على الإقامة هذه الفترة القصيرة» ففزع النصارى وهالهم أن يكون احتلال المسلمين دائمًا، ونزلوا من معاقلهم وفتحوا الطريق لهم ليعودوا إلى قرطبة آمنين محملين بما نالوه من نفل، وزاد بهم الخوف فأعطوهم كثيرًا من الحقائب والبغال، ليحملوا عليها الغنائم...

إن المنصور الذى لم تغلبه الرجال غلبه الموت! !

فإنه مرض ومات بمدينة سالم[1] حينما كان فى آخر غزواته المظفرة لقشتالة[2]، وتنفس النصارى الصعداء لموته، ودل على هذا الارتياح عبارة موجزة دونها أحد الرهبان فى تقويمه، وهى: «فى سنة ١٠٠٢ مات المنصور، ودفن فى الجحيم».

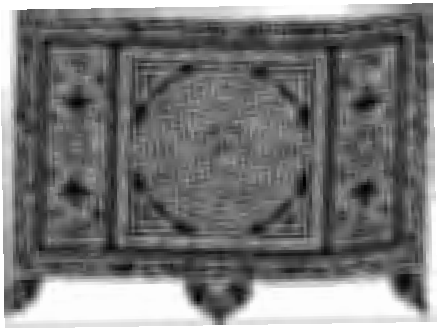

(١) مات سنة ٣٧٤ هـ.

(٢) يسمى العرب هذه الغزوة: غزوة قنالش والدير.